# الهوية الثقافية: ماهيتها وخصائصها

أحمد مرسي

أستاذ، قسم اللغة العربية، جامعة القاهرة، مصر

## الملخص

يستخدم مصطلح «الهوية» لترجمة المصطلح الإنجليزي **Identity** المشتق من الكلمة اللاتينية **Idem** التي تعني "المماثل أو المشابه". وهذا المصطلح "هوية" مصطلح حديث في الثقافة العربية؛ إذ استخدمت هذه الثقافة مصطلحاً آخر، هو الذات لتعني به – إلى حد ما – ما يعنيه مصطلح الهوية.

وعلى ذلك استخدم بعض الباحثين مصطلحات من مثل "الذات الخاصة" و"الذات العامة" و"الذات الفردية" و"الذات الجمعية"، وهم يعنون بـ (الذات) هنا ما يقابل "الهوية" في استعمالات أخرى.

وترى هذه الورقة أن استخدام المصطلح بالمعنى الحديث لا يبعد كثيرًا عن الأصول القديمة سواء في العربية أو اللاتينية؛ فنحن عندما نقول: إننا لا بد من أن نتعرف ذاتنا، أو هويتنا الثقافية مثلاً فإنما نعني – في المقام الأول – أننا نريد أن نعرف حقيقتنا وحالنا، وأن ندرك من ثم من نحن، وأين موقعنا من حركة التاريخ، وطبيعة علاقتنا مع الآخرين. كما أننا عندما نتحدث عن ذات أو هوية ثقافية إنما نعني تشابه أو تماثل مجموعة من الذوات أو الحقائق الفردية، أو عدد من السمات والخصائص المادية والمعنوية المشتركة. وبمعنى آخر، إنها تعني أساليب تفكير، وأنماط سلوك متشابهة أو متماثلة وسائدة إلى حد كبير.

وهذه الهوية الثقافية ليست موروثاً ناشئاً عن جوهر لا يتغير أو بنية عقلية، أو نفسية، ثابتة، إنها حقيقة لا تحددها الغريزة، ولا تصوغها الفطرة، تشترك في تكوينها مجموعة كبيرة من العوامل، تتبلور في النهاية، كي تعطي ملامح مشتركة وخصائص عامة يصح أن نستخدمها في التعميم، إلى حد كبير.

وتصبح الهوية الثقافية، بهذا المعنى، هي ما تحرص الجماعة على إظهاره على أنه ملامح ثابتة يتشابه فيها أعضاؤها، ويتماثلون في كثير من رؤاهم ومواقفهم.

إن هناك تصورات ومشاعر، فردية وجمعية، تستقر في اللغة، وفي الفن والعادات والتقاليد والقيم... إلخ، يمكن الرجوع إليها في تحديد الهوية الثقافية للشعوب والأمم، ولكننا ينبغي أن نتحفظ هنا بأن هذا ليس أمراً مطلقاً، أو يرجع إلى تركيب عقلي متأصل في طبيعة الجماعة أو الشعب أو الأمة، أن هذه الهوية تعني، فيما تعنيه، مجتمعاً يتفاعل باعتباره وحدة مع المجتمع الآخر، أو المجتمعات الأخرى؛ أي مع عالم مختلف عن عالمه، قرباً أو بعداً.

**ويمكن تلخيص خصائصها التي ستناقشها هذه الورقة على النحو التالي:**

**أن الهوية الثقافية عامة ليست ماهية مجردة، إنما هي حالة تراكمية لعناصر متعددة، وأن اللغة والتجارب المتنوعة للأجيال المتعاقبة والعادات والمعتقدات والتقاليد والفنون والآداب والتقاليد والمعارف والقيم وأنماط السلوك، تسهم باستمرار في بلورتها وتحديد معالمها.**

**أنها تعبير عن كلَ مركّب من حقائق تاريخية وجغرافية وواقع اقتصادي وسياسي، واجتماعي. وهي في الوقت ذاته تعبير عن طموحات وتطلعات جماعة أو شعب أو أمة، في الزمان والمكان.**

**أنها ليست أحادية الجانب، وإنما هي متعددة الجوانب ولا تتسم بالثبات أو الجمود، وإنما هي ديناميكية مستمرة متطورة في الزمان والمكان أيضاً، ولا يغيّر من ذلك أن تحتفظ بعناصر تتسم بالثبات أحياناً.**

**وأياً ما كان الأمر فإن الثراء الحضاري لأي مجتمع إنما يأتي من تنوع هويته، وفي تعدد مصادر هذه الهوية، وأنه كما تنتج الأمة أو الجماعة ثقافتها، فإن هذه الثقافة هي التي تصوغ هويتها وتقوم بتشكيلها وإبراز خصائصها.**

تتعدد تعريفات الثقافة حتى تصل الآن إلى ما يقرب من مائتي تعريف. ولا نستطيع – بالطبع – أن نستعرض هنا كل هذه التعريفات أو عدداً ممثلاً لها؛ ذلك أنها جميعاً تصلح للدلالة على مضمون الثقافة تبعاً للزاوية التي ينظر المعرّف إليها من خلالها، والعلم الذي يمثله، والمرحلة التاريخية أو الزمنية التي نشأ فيها التعريف.

وعلى الرغم من هذه الكثرة الهائلة من التعريفات، فإننا نرى أنها تكاد تتفق في معظمها على أنها تتضمن المعتقدات وأنماط السلوك والقيم التي تعطي معنى للحياة والتي تتبدى في أشكال متعددة مادية ظاهرة، ومعنوية أو رمزية مضمرة، يتم التعبير بها، وإنتاجها وإعادة إنتاجها ممّا يشكل الهوّية الثقافية للجماعة أو المجتمع.

ولقد شاع مؤخراً الاهتمام بالهوية عامة، والهوية الثقافية خاصة بعد أن كثر الحديث عن «العولمة» وتأثيراتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية على شعوب العالم الثالث فأصبح اللجوء إلى تأكيد الهوية بمثابة خط دفاع أو آلية مقاومة ضد غول العولمة.

على أية حال لقد استخدم مصطلح «الهوية» – في الثقافة العربية – ترجمة للمصطلح الإنجليزي Identity المشتق من الكلمة اللاتينية Idem التي تعني "المماثل أو المشابه". وهذا المصطلح "هوية" مصطلح حديث بالمعنى المتداول حالياً في الثقافة العربية؛ إذ استخدمت هذه الثقافة مصطلحاً آخر هو الذات لتعني به – إلى حد ما – ما يعنيه مصطلح الهوية.

تذكر المعاجم العربية كلمة "الذات" بمعنى "الحال" كما في "أصلح الله ذات بينهم" أي "حالهم" (أساس البلاغة: مادة ذوى)، وكما في قوله تعالى "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم" أراد الحالة التي للبين. وقال أبو إسحق: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم. وكذلك "اللهم أصلح ذات البين" أي: أصلح الحال التي بها يجتمع المسلمون، و"ذات الشيء" خاصته وحقيقته، و"عرفه من ذات نفسه" كأنه يعني: سريرته المضمرة. "إنه عليم بذات الصدور" معناه بحقيقة القلوب من المضمرات (لسان العرب: مادة ذو).

هكذا نرى أن "الذات" تعني – أصلاً – الحال والحقيقة ظاهرة وباطنة. ومن ثم، فإن "ذاتي" تعني حقيقتي، وحالتي. "فابن خلدون" في مقدمته عندما يذكر أن "لكل شيء طبيعة تخصه" يؤكد أن انتفاء خصوصية الشيء تنفي وجوده، وأن خصوصية الإنسان الحقيقية ليست خصوصية طبيعية بقدر ما هي خصوصية مجتمعية وتاريخية. "وابن رشد" في "تلخيص ما بعد الطبيعة" يقول إن الهوية تقال بالترادف للمعنى الذي يطلق على اسم الموجود وهي مشتقة من "الهُوَ" كما تشتق الإنسانية من الإنسان. ولن ندخل هنا في تتبع تاريخي لاستخدامات الكلمة يبعدنا عن "قصدنا"، خاصة أن الفلاسفة المسلمين والمتكلمين والصوفية قد استخدموا الكلمة أو المصطلح ليعني معاني محددة لا مجال لها في هذه الورقة. ولقد استخدم بعض الباحثين مصطلحات من مثل "الذات الخاصة" و "الذات العامة" و "الذات الفردية" و "الذات الجمعية"، وهم يعنون بـ "الذات"، في هذه الاستخدامات، ما يقابل "الهوية" في استعمالات أخرى.

على أية حال، إننا نرى أن استخدام المصطلح بالمعنى الحديث لا يبعد كثيراً عن الأصول القديمة سواء في العربية أو اللاتينية، فنحن عندما نقول: إننا لابد من أن نتعرف ذاتنا، أو هويتنا، فإنما نعني – في المقام الأول – أننا نريد أن نعرف حقيقتنا وحالنا، وأن ندرك من ثم من نحن، وأين موقعنا من حركة التاريخ، وطبيعة علاقتنا مع الآخرين. فالهوية هي الشفرة التي يستطيع الفرد بها أن يعرّف نفسه في علاقته بغيره وبالجماعة التي ينتمي إليها، والتي من خلالها يتعرف الآخرين ويتعرفه الآخرون. كما أننا عندما نتحدث عن ذات أو هوية جمعية إنما نعني تشابه أو تماثل مجموعة من الذوات أو الحقائق الفردية، أو عدد من السمات والخصائص المادية والمعنوية المشتركة. وبمعنى آخر، إنها تعني أساليب تفكير، وأنماط سلوك متشابهة أو متماثلة وسائدة إلى حد كبير. وعلى ذلك يمكن القول إنه عندما

تتشابه جماعة ما أو أغلبية مجتمع ما في سمات أو خصائص فكرية ونفسية واجتماعية فإن هذا يسمح لنا بالإشارة إليهم أنه تجمعهم هوية ثقافية ترجع إلى تجارب معيشية متماثلة في التاريخ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتحفظ هنا بأن هذا التماثل أو التشابه لا يعني المطابقة الكاملة بحال من الأحوال؛ إذ لا يمكن لباحث يعتمد العلم منهجاً في التفكير وأسلوباً في التحليل أن يزعم أن أفراد أي أمة أو مجتمع أو جماعة متماثلون تماماً، اجتماعياً، واقتصادياً، وفكراً وسلوكاً، فالكويتيون – مثلاً – أو المصريون أو الصينيون يستحيل أن يكونوا متطابقين متماثلين جميعاً فيما بينهم، وإنما أقصى ما يمكن قوله إنهم يتشابهون فيما بينهم في مواقف أو مستويات معينة؛ مما يجعل ردود فعلهم متشابهة تكشف عن اتجاهات عامة متماثلة نسبياً تميز بينهم وبين غيرهم فيما يرتبط بهذه المواقف، بتأثير الثقافة التي ينتمون إليها والتي تؤثر إلى حد كبير في تكوين اتجاهات مشتركة وخلق ميول ورؤى متماثلة نسبياً. ومن ثم فإن هذه الهوية الثقافية الجمعية، أو الحقيقة الجمعية، أمر نسبيّ يقوم على تحقيقه شعب أو جماعة عن طريق التفاعل بين الأفراد بعضهم وبعض من ناحية، وبين الأفراد والعوامل التي تشكل حياتهم اجتماعياً وتاريخياً وثقافياً وبيئياً؛ تأثراً بها، وتأثيراً فيها، من ناحية أخرى. فالإنسان تاريخ مضاف إلى الطبيعة وليس مجرد مخلوق يعيش بشكل غريزي، وتاريخ الإنسان هو حصيلة مجموعة من أشكال الوعي والمصالح والثقافات المتفاعل بعضها مع بعض ومع الطبيعة أيضاً، وهو ما يشكل في جوهره وجوده، وهويته بالمعنى العام وهويته الثقافية على وجه الخصوص.

وهكذا فالهوية الثقافية أساساً هوية نسبية تاريخية تحققها جماعة أو شعب ما عن طريق التفاعل الحي مع التاريخ، وتتجلى في صورة نتاجات اجتماعية تاريخية متجمعة تشمل وثائق مكتوبة وتقاليد شفاهية وأشياء رمزية وتعكس تشابهاً وتفرداً في آن واحد. وهي تعني –في جوهرها – مجموعة أنماط السلوك والخصائص والسمات أو الملامح المتجانسة التي توحّد، وتحقق وجوداً ما، لتميزه عن غيره. كما تعني طرق التفكير والميول والمفاهيم والرؤى حول العالم الطبيعي والاجتماعي، وحول الطرق الملائمة وغير الملائمة لمواجهة الحياة وحل مشكلاتها، والخير والشر والحق والباطل والقوة والضعف، والحب والكره، والغنى والفقر،

والعدل والظلم والديموقراطية والديكتاتورية، وغير ذلك مما يتشارك فيه أفراد الجماعة أو المجتمع، وما يسلكهم في منظومة تضمهم في كل واحد يتميز ببنيته وتكوينه الذي يعتمد على تفاعلهم وتأثيرهم بعضهم في بعض وتأثرهم بعضهم ببعض في إطار تلك المنظومة.

لكنها في الوقت ذاته تعني الاختلاف، فالهوية الثقافية الواحدة مفهوم متناقض ذاتياً، وهي حالة توحد الذات إزاء الآخر، وتأكيد لخصوصية الذات، واستقلالها عن الآخر. إذ يميل كل فرد إلى الدفاع عن مفهومه لذاته؛ أي هويته وإلى تعزيز هذا المفهوم. وهو في ذلك يتعلم تلك الأشياء التي تحمل معاني شخصية بالنسبة إليه، ويرفض الأشياء التي من شأنها أن تهدد إدراكه لذاته أو تقوضها.

ويرتبط إدراك الفرد لذاته – هويته – ارتباطاً وثيقاً بإدراكه للآخرين –كما ذكرنا– ونظام علاقاته معهم ويتحدد بالواقع الاجتماعي الثقافي للأفراد. والتفاعل الثقافي الناجح يتوقف – إلى حد كبير – على الحدّ الذي يكون عنده الأفراد المشتركون في الثقافة على وعي بحاجات بعضهم إلى بعض وبمشاعرهم واتجاهاتهم وقيمهم.. إلخ.

والثقافة بما تيسره من سبل اتصال بين الأفراد هي الأساس للعلاقات الاجتماعية بكل أشكالها، وهي الرابط القوي الذي يصل الناس بعضهم مع بعض، ويربط بينهم في علاقات اجتماعية تصبح أنظمة اجتماعية فعالة بواسطة هذا الاتصال الذي توفره الثقافة وهو ما يؤدي إلى تكوين الجماعات والمجتمعات، التي يتزايد تأثيرها على اتجاهات أفرادها وسلوكهم واتجاهاتهم بقدر عمق انضواء أعضائها فيها، حيث تتحقق الهوية الثقافية عن طريق الاتصال وجهاً لوجه أو عبر وسائل متعددة تبعاً للمرحلة التاريخية التي تعيشها هذه الجماعات والمجتمعات.

وعلى ذلك، لا تصبح هذه الهوية الثقافية أمراً موروثاً ناشئاً عن جوهر لا يتغير أو بنية عقلية، أو نفسية، ثابتة. إنها – إذن – حقيقة لا تحددها الغريزة، ولا تصوغها الفطرة، وهي أيضاً حقيقة تشترك في تكوينها مجموعة كبيرة من العوامل، تتبلور في النهاية، كي تعطي ملامح عامة يصح أن نستخدمها في التعميم إلى حد كبير. وهي تعني – على صعيد الفرد – تمايزه عن الآخر، واتصافه بملامح ذاتيه تختلف عن ملامح غيره من الأفراد، وتعني على صعيد القيمة وعيه بذاته وبحقيقته الوجودية، وإدراكه لتميزها – أي هويته الثقافية

– وحدودها الزمانية والمكانية ورسالتها الأخلاقية وما يرتبط بها من دلالات سياسية واقتصادية واجتماعية.

وتصبح الهوية الثقافية العامة أو الجمعية، بهذا المعنى جماع الهويات الثقافية الفردية، وما تحرص الجماعة على إظهاره على أنه ملامح ثابتة يتشابه فيها أعضاؤها ويتماثلون في كثير من رؤاهم ومواقفهم، على الرغم أن الواقع قد يجعل أعضاء الجماعة تختلف مشاربهم وتتنوع اهتماماتهم وتتعدد رغباتهم، وهو ما قد يؤدي – إذا ما تعمقت هذه الاختلافات بعقول الأفراد – إلى أشكال عدة من الصدام بين ذات الفرد وذات الجماعة. ومهما يكن من أمر، فإن الأفراد الذين ينشؤون في وسط اجتماعي ثقافي واحد يكشفون – على الرغم الاختلافات الفردية – عن سمات واحدة متماثلة أو متشابهة. وهكذا فإن الهوية الثقافية – باختصار شديد – هي مجموعة السمات التي تميز جماعة أو شعباً في مرحلة تاريخية ما. وكلما زادت وحدة هذا الوسط، زاد تشابه هذه السمات؛ ذلك أن معاناة أوضاع وتجارب ومواقف متماثلة تؤدي إلى إنتاج أو تكوين هوية متماثلة بين الأفراد والجماعات التي تتعرض لها. ولذلك، فعندما ترتفع درجة التماثل – كما نرى في المجتمعات القبلية أو الزراعية الصغيرة – تصبح الوحدة بارزة أو التماثل متحققاً إلى حد كبير.

وتتجلى الهوية الثقافية لجماعة من خلال تعبيرات متعددة تبدو في الرموز المشتركة والموسيقى والشعر والفنون عامة وغيرها من العناصر التي تميزها عن جماعة أخرى. والحقيقة أن هذه الرموز والعناصر هي التي تحدد الهوية الثقافية، وهي التي تقرب ثقافة ما من ثقافة أخرى أو تبعدها عنها. والتعبير بالرموز في جوهره فكر وسلوك، وعلى ذلك تكون الهوية الثقافية إجابة بالرموز عن كل ما يواجه المجتمع من تساؤلات حول ماضيه وعلاقته به، وحاضره وموقفه منه ومستقبله ونظرته إليه وآماله وطموحاته.. إن مجموع هذه الإجابات يشكل حلاً حياً متطوراً فاعلاً هو "الهوية الثقافية".

ويشكل التراث هنا بعداً ذا أهمية خاصة في تحديد ماهيتها. والتراث بهذا المعنى لا يعني ما ينتمي إلى الماضي على إطلاقه، وإنما يعني ما تراكم في وجداننا من موروث ثقافي فاعل في حياتنا. وعلى ذلك فالتراث ليس مرادفاً للهوية الثقافية وإنما هو أحد مكوناتها على أساس أن هناك عناصر منه كبعض المعتقدات، والتقاليد وغيرها تبقى حية متأصلة فيه ومستمرة إلى حد كبير.

إن هناك تصورات ومشاعر، فردية وجمعية، تستقر في اللغة، وفي الفن والعادات والتقاليد والقيم.. إلخ، يمكن الرجوع إليها في تحديد الهوية عامة، والهوية الثقافية، للشعوب والأمم خاصة. ولكننا ينبغي أن نتحفظ هنا بأن هذا ليس أمراً مطلقًا، أو يرجع إلى تركيب عقلي متأصل في طبيعة الجماعة أو الشعب أو الأمة، وأننا لكي نتعرف علاقة جماعة بجماعة أو أمة بأمة أخرى، فإن علينا أن ندرك الهوية الثقافية التي تميز هذه الجماعة أو تلك الأمة، كما أننا يجب أن ندرك أيضاً أن هذه الهوية تعني، فيما تعنيه، مجتمعاً يتفاعل باعتباره وحدة مع المجتمع الآخر، أو المجتمعات الأخرى، أي مع عالم مختلف عن عالمه، قرباً أو بعداً.

إن الفكر الاجتماعي الحديث يدرس عادات الجماعة وتقاليدها ونظمها وقيمها باعتبارها منتجاً اجتماعياً وهوية ثقافية تتحقق من خلال تفاعلها مع وسط خارجي، ويقوم بتصنيفها وتحليلها، ثم يحدد على أساس ذلك كله، وكنتيجة له، الاتجاهات والسمات المتماثلة التي تميزها كهوية ثقافية وتضفي عليها شخصيتها في مرحلة معينة أو طور تاريخي محدد.

والهوية الثقافية بهذا المعنى نتاج تاريخي وتخضع لتحولات عدة، كما أنها في حالة سيرورة دائمة، وليست كينونة ثابتة جامدة، وإنما تبدو في أصول ومصادر متعددة، منها التاريخ واللغة والمأثورات وأشكال الإبداع المختلفة.. إلخ، وتُعد اللغة عنصراً أساسياً في تشكيل الهوية الثقافية للجماعة أو المجتمع؛ ذلك أنها - كما قال "هيدجر" - "مسكن الوجود"، ومن ثم فهي تعبر عن وجود الناس وإحساسهم بهذا الوجود وفهمهم له ومعرفتهم به، وبالأشياء التي توجد فيه. فاللغة جزء مهم من الثقافة، كما أنها عامل أساسي في تشكيلها. فالمجتمع يشكل الفرد من خلال اللغة التي تقدم للإنسان منذ سنيّه الأولى وسيلة التعبير عن مشاعره وأفكاره ورؤاه، وهي التي يحدد بها الأشياء وعلاقته بها، وهي أداة الحوار التي يحدد بها الأشياء وعلاقته بها، وهي أداة الحوار التي يتواصل بها ومن خلالها مع الآخرين، ويتلقى معارفه وخبراته وينقلها إلى غيره، وتحتاج علاقة اللغة بالهوية الثقافية -في حقيقة الأمر- إلى ورقة مستقلة لأهميتها فى هذا الشأن.

على أية حال إن اللغة وعادات الشعوب وتقاليدها ورموزها - التي تحدد هويتها الثقافية - ليست مجرد ظواهر أو عناصر عابرة لا تلبث أن تنتهي أو تزول؛ ولعل أقصى ما

يمكن أن نشير إليه في هذا الصدد هو ما يحدث من تحولات لها أو تغيرات فيها، تبعاً لطبيعة السمات التي تتكون أو تتشكل منها ومن ثم تؤثر في ماهيتها. إن هذه التحولات – في الحقيقة – لا تحدث فجأة أو دفعة واحدة، وإنما تتصف بالبطء ومن ثم تخضع السمات التي تتشكل نتيجة لها لأشكال مختلفة من التغير، فيزول بعضها بدرجات متفاوتة من السرعة ويبقى البعض الآخر دون تغيير؛ لأنها مازالت تؤدي دورها في تمييز الهوية الثقافية للجماعة.

والذي لاشك فيه أن الهوية الثقافية الجمعية أقل تأثراً بالمتغيرات التي تحدث للهوية الفردية؛ ذلك لأن الفرد يمثل أولاً وأخيراً إرادة واحدة، ويعمل في نطاق حياة واحدة، بينما تعبر الجماعة أو الشعب عن تفاعل مستمر بين مجموعة كبيرة من الإرادات الفردية والجمعية على السواء، ويتحرك الفرد نفسه داخل هذه الدائرة عن وعي أحياناً وعن غير وعي أحياناً أخرى، كي يصل في النهاية إلى تحديد علاقته بالهوية الثقافية العامة سلباً أو إيجاباً. فالهوية الثقافية سواء كانت فردية أم جمعية ليست شيئاً ثابتاً لا يتغير وهو ما نؤكده دوماً، إنها عملية دينامية تتشكل من خلالها الذات على نحـو لا يتوقف. وهي عملية يمتزج فيها الماضي (ما كان) بالحاضر (ما هو كائن)، وتتجه إلى المستقبل (ما نأمل أن يكون). وهذه الهوية الثقافية الجمعية تنتج أساساً من عاملين: عامل داخلي يأتي من تقاليد الماضي وموروثاته – كما ذكرنا من قبل – وعامل خارجي يعكس تفاعل المجتمع مع وضع خارجي، قد يكون جغرافياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، أو اقتصادياً، أو عسكرياً، مما يفرض نوعاً من المواجهة التي لابد منها، تتمثل في مجموعة من ردود الفعل التي تميز هوية عن هوية أخرى.

إن كل هوية ثقافية هي – في جوهرها – تكوين لا يتضمن – من ثم – عناصر داخلية تنتمي إلى جماعتها أو مجتمعها فحسب، بل إنها تستوعب أيضاً إسهامات إنسانية عامة تنتمي إلى جماعات أو مجتمعات أخرى، سواء على الصعيد المحلي أو على الصعيد الكوني الأوسع. ويعني هذا أنها يستحيل أن تكون معزولة تماماً أو منقطعة الصلة بغيرها من الهويات الثقافية الأخرى؛ لأن تواصلها مع غيرها يثريها ويضيف إليها ويشكل ضرورة بقاء واستمرار لها ولغيرها. ومن ثم فإن لها بعداً مهماً أو خصيصة مهمة هي أنها لابد أن تكون منفتحة على الهويات الأخرى، وأنها في حقيقتها وجوهرها لا تكتمل ذاتياً بما تتميز به، وإنما بعلاقتها بالهويات الثقافية الأخرى وما تتميز به هذه الهويات أيضاً. وعلى ذلك فإن

تصور تثبيت الهوية الثقافية لجماعة أو مجتمع أو شعب إنما يعني تجميدها وفصل جوهرها وحقيقتها عن الوقائع والتحولات الخارجية، في حين أنها لكي تكون هوية حقيقية لابد من أن تكون مرتبطة بهذه الوقائع والتحولات إن لم تكن انعكاساً لها وتعبيراً عنها.

والحقيقة أن هذا الارتباط بالوقائع والتحولات لا يلغي الهوية الثقافية أو ينفيها، أو يسطحها أو يفقدها مضمونها أو قيمتها، بل إنه يثريها، ويجعلها قيمة فاعلة، حيّة، مؤثرة، لا قيمة جامدة، ساكنة، راكدة. ومن هنا فإنها تستمد قوتها وحيويتها التي تأتي من تضافر وتفاعل مختلف عناصرها ومكوناتها بالإضافة إلى ما تكسبه من انفتاحها، واتساعها لتضم كل ما هو جديد في الحياة من خلال موقف نقدي يميزها في علاقتها بهذا الجديد.

إن الهوية الثقافية للإنسان شأنها شأن الإنسان ذاته، تتحقق في تجدده لا في جموده، وتتبلور في تفاعله مع غيره لا في عزلته، وتثرى من خلال تواصله لا انقطاعه، فالفعل الخلاق هو حقيقة الهوية الثقافية. ولعل أخطر ما تتعرض له أية هوية ثقافية هو جمودها وتوقفها عن تمثل الحاضر واستشراف المستقبل وانتكاسها باستعادة ماضٍ لن يعود ثم تنقيته وإضفاء صفات مثالية عليه، وانتزاعه من سياقه وفرضه على سياقٍ وحاضر مختلف، ومستقبل سيكون بالضرورة أكثر اختلافاً؛ وبذلك تعزل هذه الهوية نفسها عن عالمها، وتنقطع عن عصرها، وتنحصر في رؤية أحادية جامدة، تفقدها فاعليتها، وتجعلها مجرد شعارات جوفاء، وأنماط سلوك زائفة، تتنكر للعقل، وتعلي من شأن التقليد الأعمى، والخبرات الضريرة، وإهدار حق الإنسان في أن يعيش عصره، وأن يبني مستقبله، معتمداً على الإنجازات التي حققتها البشرية نتيجة انفتاحها الثقافي، وتواصلها الحضاري الذي لم ينقطع على مدار التاريخ.

**ليس الفتى من قال كان أبي  إن الفتى من قال هأنذا**

نخلص من هذا كله إلى:

1 - أن الهوية الثقافية ليست ماهية مجردة، إنما هي حالة تراكمية لعناصر متعددة تتشكل اجتماعياً وتحققها جماعة أو شعب عن طريق تفاعله أو علاقته مع غيره. وأن اللغات والتجارب المتنوعة للأجيال المتعاقبة والعادات والمعتقدات والتقاليد والفنون والآداب

والمعارف والقيم وأنماط السلوك، تسهم باستمرار في بلورتها وتحديد معالمها.

2 - وأنها تعبير عن كل مركّب من حقائق تاريخية وجغرافية وواقع اقتصادي وسياسي، واجتماعي متطور فاعل مفتوح على المستقبل، وهي في الوقت ذاته تعبير عن طموحات وتطلعات جماعة أو شعب أو أمة ورؤيتها لذاتها في الزمان والمكان. وأن فاعليتها تأتي من مدى تمثيلها لآمال وطموحات الذين ينتمون إليها ومن قدرتهم على الإجابة عن التحديات التي تواجههم، ومن صمودها في خضم الصراعات المخيفة التي يموج بها العالم.

3 - أنها ليست أحادية الجانب، وإنما هي متعددة الجوانب ولا تتسم بالثبات أو الجمود ولا تتشكل من مقوم واحد فحسب سواء كان هذا المقوم دينياً أو لغوياً وسواء كان تراثاً مشتركاً أو خبرات اجتماعية أو مصالح مشتركة وإنما هي مركب متشابك وحصيلة مجموعة من هذه العناصر وغيرها تجتمع معاً وتتفاعل معاً في إطار من العقلانية، واحترام الاختلاف، وقبول النقد، وتأكيد الحرية، وتشجيع الإبداع. إنها حالة ديناميكية مستمرة متطورة في الزمان والمكان أيضاً، ولا يغيّر من تلك الحقيقة أن تحتفظ بعناصر تتسم بالثبات أحياناً.

وأياً ما كان الأمر فإن الثراء الحضاري لأي مجتمع إنما يأتي من تنوع هويته، وفي تعدد مصادر هذه الهوية، وأنه كما تنتج الأمة أو الجماعة ثقافتها، فإن هذه الثقافة هي التي تصوغ هويتها وتقوم بتشكيلها وإبراز خصائصها.